الفصل الثانى

الإعجاز العلمى القرآنى

مقدمة:

القرآن الكريم كتاب الله إلى البشر كافة ولذا فقد تعددت أوجه الإعجاز فيه من إعجاز لغوى بلاغى بيانى يعرفه من يجيدون اللغة العربية، لإعجاز نفسى يصلح النفس البشرية ويهديها إلى الأمن والاستقرار النفسى ويحلل عللها ويعالجها، لإعجاز تاريخى يتجلى فى إظهار ما مضى وما لم يكن قد أتى بعد من أحداث، وإعجاز تشريعى متكامل لجميع نواحى الحياة لما تلح به حياة الفرد والمجتمع أما الإعجاز الغيبى فهو إخبار من عالم الغيب والشهادة بغيب الماضى والحاضر والمستقبل وكل هذه الأوجه من الإعجاز أتت فى نغمة موسيقية رائعة.. أما الإعجاز العلمى فهو خير دليل على صدق النبوة لما به من إشارات لحقائق علمية لم تظهر إلا فى عصرنا الحديث وهو رسالة من الله سبحانه وتعالى إلى من لا يؤمنون إلا بلغة العلم وسيلة للتخاطب فضلاً عن الاقتناع.

إذا كان «التفسير العلمى» هو الكشف عن معانى الآية فى ضوء ما ثبتت صحته من «نظريات» العلوم الكونية، فإن «الإعجاز العلمى» هو إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتها العلم التجريبى أخيرا، وثبت عدم إمكان إدراكها بالوسائل البشرية فى زمن الرسول ﷺ(1).

ولما كانت أبحاث «الإعجاز العلمى» متعلقة بالتفسير العلمى للآيات الكونية ومتصلة بشرح الأحاديث فى هذه المجالات، فهى فرع من فروع التفسير وتقوم على مصادره.. ولما كانت قائمة على إظهار التوافق بين نصوص الوحى وبين الكشف العلمى التجريبى عن حقائق الكون وأسراره، فهى كذلك تقوم على مصادر العلوم التجريبية إلى جانب العلم المتعلق بتاريخها، كما تتصل أيضا بعلم أصول الدين ويمكن الرجوع إلى كتب المؤلف فى الإعجاز العلمى للقرآن(2).

إن معجزة القرآن العلمية تظهر لأهل العلم فى كل عصر، والمتأمل فى أحوال العالم قبل نزول القرآن يرى التخلف الهائل فى مجال العلوم الكونية فى عصر الجاهلية ويرى كيف

---

(1) الزندانى (الشيخ عبد المجيد): المعجزة العلمية للقرآن والسنة. بحوث المؤتمر العالمى الأول للإعجاز العلمى فى القرآن والسنة. إسلام أباد. باكستان، ١٤٠٨ / ١٩٨٧م.

(2) كتب عديدة منشورة للمؤلف فى دار المعارف.

اختلطت المعارف الكونية للإنسان بالسحر والكهانة والشعوذة والأوهام حتى غلبت الخرافة وسادت الأساطير على الفكر الإنسانى فى ذلك العصر، ولقد انتظرت البشرية طويلا بعد نزول القرآن حتى ظهر الإعجاز العلمى فى عصرنا وصدق الله تعالى مخاطبا رسوله الكريم وخاتم النبيين بقوله سبحانه:

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (العنكبوت)

وكم يُسَر المؤمن فى عصرنا وهو يشاهد حقائق الواقع فى العلوم الكونية والإنسانية وقد جاءت مطابقة لما جاء به الوحى قبل ألف وأربعمائة سنة وصدق الله تعالى بقوله سبحانه

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾
(الأنبياء)

وقوله عز من قائل:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (النمل)

ويتساءل الناس عن إعجاز القرآن فقال الغزالى: القرآن فى الدلالة على الله تعالى كون ناطق، كما أن هذا الكون الضخم قرآن صامت وكلاهما ينبثق من ذات واحدة ويهدف إلى غاية واحدة.. وبهذا فهناك فرق يتمثل فى إعجاز لغة القرآن كما يراه علماء وفصحاء اللغة العربية وبين إعجاز القرآن الذى يتجاوز قمة لا تصل إليها عيون البشر فضلا عن ألسنتهم.. ما هو بالشعر ولا هو بالنثر ولا هو بسجع كهان ولا هو بإنتاج إنسان ولا هو بالسحر.. فما هو السر فى إعجاز القرآن؟

يقول الكاتب الإسلامى أحمد بهجت فى كتابه (الله، الكون، الإنسان).

«فى البداية قيل إن اللفظ معجز فى ذاته ومعجز بمعناه ومعجز بما يحمله من حكمة، وقيل إن الإعجاز فى تشريعه العام المحكم الذى يتفق مع جميع الأزمنة ويصلح لكل الدهور والعصور، وقيل إن إعجازه يصدر عن نبوءاته الغيبية، وقيل إن إعجازه ينبع من علومه الكونية، وقيل إن إعجازه يتمثل فى موسيقاه الداخلية، وقيل إن إعجازه هو تصويره الفنى للمشاهد والأحداث يعرضها كما لو كنا أمام أشخاص يتحركون أمامنا أحياء كما كانوا بملامحهم النفسية وأعماقهم الدفينة، فإذا نحن أمام ما مضى. أو أمام حدث لم يأت بعد.. فالقرآن يصف الجنة مثلا فنحس أننا نتحرك داخلها، ويصف النار فتقشعر الجلود وتخشع القلوب، ويصف ما كان من أمر موسى وفرعون، فنحس أننا نعيش ذلك العصر داخل نفوس أبطاله لا خارجها، ويُشَرِّع القرآن فإذا الرحمة والعدل والحب والسلام تولد من تشريعه للعباد.

وقد يصمت القرآن فى نفوس الناس - للأسف الشديد - أو يبعد عن حياتهم وقد يعزله الحاكم الظالم عن توجيه أقدار الناس فإذا الأرض تئن من الظلم والقسوة والخراب ويلعن الناس اليوم الذى ولدوا فيه، فإذا عاد القرآن إلى النفوس أحياها بعد موتها مثلما تحيى المياه الأرض بعد موتها».

وكل ما يقال فى إعجاز القرآن الشامل صحيح كما فى حديث النبى محمد ﷺ واصفا القرآن كما يلى:

«كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل».

فهل بعد ذلك فضل وإعجاز وهدى ورحمة.. صدقت يا رسول الله.

والقرآن الكريم معجزة تخاطب الناس كلهم على اختلاف مكانهم وزمانهم وعقولهم، فالأمى يسمع القرآن فيفهم دعوته إلى عبادة الله وتوحيده، ويفهم تشريعه لأنه سهل، والمثقف يقرأ القرآن فيرى وراء توحيد الله خلاصا للبشر من الطغاة وإعلانا لحرية الإنسان وحقوقه، والعالم يقرأ القرآن فيجد فى آياته معجزات علمية لم تظهر إلا فى عصرنا الحديث، ورجل الفن يقرأ القرآن فيبهره هذا التجسيد للمَشَاهِد وهذا التصوير الفنى وموسيقى الحوار ونغم العبارات، وينظر المتصوف فى القرآن فإذا هو أمام أكثر من دنيا تبدأ بالتوبة وتمر على الحب وتنتهى بالفناء، وهكذا تجد كل طبقة من طبقات الوعى والمعرفة فى القرآن عمقا معجزا تسبح فيه بالعقل بملايين السنين.

ومن المسلم به أن القرآن الكريم هو أصل النهضة الإسلامية لأن كل فروع المعرفة الإسلامية منبثقة منه. فعنى القراء والكتبة الأبرار فى وقت نزوله بضبط كلماته ومخارج حروفه وعدد آياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه، وعنى أهل النحو بالمعرب منه والمبنى واللازم والمتعدى وغير ذلك من أصول النحو والصرف، واعتنى المفسرون القدماء بألفاظه وتعدد معانيها، واعتنى الأصوليون بعلوم التوحيد وما بالقرآن من أصول الدين وأحكام اللغة والمجاز فتكلموا أيضا فى التخصيص والأخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه، وسموا ذلك أصول الفقه، واعتنى آخرون بقصص القرون السابقة والأمم الخالية الواردة بالقرآن، وتنبه آخرون لما بالقرآن من الحكم والأمثال والمواعظ لخدمة الدعوة ونظر قوم إلى ما بالقرآن من جزالة اللفظ وبديع النظم فاستنبطوا منه المعانى والبيان والبديع.. كما نظر آخرون للآيات الكونية على أنها دليل على عظمة الخالق بذكر بدائع صنعه طريقا ملموسا للهداية والرشاد فى المقام الأول ودليلا على الإعجاز العلمى للقرآن لإثبات صدق النبوة وعالمية الرسالة وخاصة فى عصر العلم[1]. فإذا لم يكن كل هذا معجزا فكيف يكون الإعجاز، ولقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بألفاظ متعددة كالقرآن والكتاب والفرقان والذكر، كما وصفه بالإحاطة والشمول كما فى قوله تعالى:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨)

وقوله عز وجل:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (النحل)

(١) انظر مؤلفات الكاتب فى هذا المجال، الناشر: دار المعارف ودار الفكر العربى.

وقوله سبحانه:

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾ (الإسراء)

حقا لقد كان وسيظل القرآن الكريم الذى جاء به النبى الأمى سببا للعلوم الإسلامية ومرجعها كلها، فما من تخصص إلا ونظر أهله فى القرآن وأخذوا منه مادة علمهم، وهذا هو الإعجاز، وصدق تعالى حين يصف كتابه بالنور كما فى قوله سبحانه:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (المائدة)

والكلام فى الإعجاز تتسع آفاقه ولا يمكن لعالم مهما كان حظه من العلم أن يبلغ الغاية أو يقف على النهاية من كلام الله الذى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.. فإعجاز القرآن أمر خارق للعادة يظهره الله سبحانه وتعالى مصداقا لنبوة محمد ورحمة للعاملين وبشرى للمؤمنين وإنذارا للكافرين.. وسوف يشهد العلماء على اختلاف تخصصاتهم وعصورهم أن القرآن هو الحق كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(الحج: ٥٤)

كما أن العلماء المتدبرين للقرآن شهود على صدق النبوة كما فى قوله تعالى:

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (الرعد)

ومعجزة القرآن أنه مفصل على علم يقينى إلهى كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(الأعراف: ٥٢)

obeikandl.com

وهذه المعجزة متجددة كما ذكرنا حتى قيام الساعة، وعلينا أن نحمد الله كلما عرفنا جانبا من إعجاز آيات القرآن كما فى قوله تعالى:

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (النمل)

وحرف السين هنا يعنى المستقبل حين يكشف الله الغطاء عن أسرار هذه الآيات وإعجازها، وعلى المكذبين للقرآن ولنبوة محمد أن يتدبروا القرآن؛ ولهذا يلومهم الله سبحانه فى آيات كثيرة كما فى قوله:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد)

وقوله سبحانه للمكذبين للقرآن دون أن يتدبروه أو يعلموا تفسيره وأسراره:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ ﴾ (يونس: ٣٩)

(ولمّا) هنا نافية جازمة، أى إن المكذبين يجهلون لأن التأويل لم يأت مباشرة بعد نور التنزيل وسيأتى يقينا فى المستقبل كما فى قوله تعالى:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الشعراء)

فالإعجاز متجدد بنص القرآن والسنة ليشهد دائما فى كل عصر لنبوة محمد ﷺ كما فى قوله تعالى: ﴿ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ ﴾ (النساء: ١٦٦)

وهنا يكمن الإعجاز فهو سبحانه وتعالى منزل القرآن وهو سبحانه محيط بالكون أى بالمكان والزمان كما فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ (الفرقان)

وهكذا تسطع بينة الوحى المنزل على محمد ﷺ بما فى القرآن الكريم من علم إلهى يدركه الناس على مراحل فى كل زمان ومكان تبيانا لكل شىء كما فى قوله تعالى:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأنعام)

حقا فالقرآن معجز من أية ناحية أتيناه. وتعدد أوجه إعجازه أمر إلهى مقصود ليناسب طبيعة الرسالة الإسلامية باعتبارها الرسالة الخاتمة لرسالات السماء، فالإسلام عام لكل البشرية ولهذا لابد أن يبقى إعجاز القرآن خالدا ومتجددا.

الإعجاز العلمى يناسب الرسالة الخاتمة والمستويات البشرية المختلفة:

ولما ختم الله النبوة بمحمد – ﷺ – ضمن حفظ دينه، وأيده ببينة كبرى تبقى بين أيدى الناس إلى قيام الساعة، قال تعالى:

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ ﴾ (الأنعام: ١٩)

وقال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ ﴾ (النساء: ١٦٦)

وفى هذه الآية التى نزلت ردًا على تكذيب الكافرين بنبوة محمد ﷺ بيان لطبيعة المعجزة العلمية التى تبقى بين يدى الناس، وتتجدد مع كل فتح بشرى فى آفاق العلوم والمعارف ذات الصلة بمعانى الوحى الإلهى.

قال الخازن عند تفسير هذه الآية:

لكن الله يشهد لك يا محمد بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذى أنزله عليك.

وقال ابن كثير:

«فالله يشهد لك بأنك رسوله الذى أنزل عليه الكتاب، وهو القرآن العظيم.. ولهذا قال: أنزله بعلمه: أى فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيب من الماضى والمستقبل».

وقال أبو العباس ابن تيمية:

هى شهادته سبحانه بأنه أنزله من عنده، وأنه أنزله بعلمه، فما فيه من الخبر هو خبر عن علم الله ليس خبرا عمن دونه، وهذا كقوله تعالى:

﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (هود)

opeikandl.com

والمعنى: أنزله سبحانه وتعالى بعلمه، كما يقال: فلان يتكلم بعلم، فهو سبحانه أنزله بعلمه كما قال تعالى:

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(الفرقان: ٦)

وإلى هذا المعنى ذهب كثير من المفسرين:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ (ص)

وبينة القرآن العلمية يدركها العربى والأعجمى، وتبقى ظاهرة متجددة إلى قيام الساعة.

ففى القرآن أنباء نعرف المقصود منها لأنها بلسان عربى مبين، لكن حقائقها وكيفياتها لا تتجلى إلا بعد حين.

قال تعالى:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ (ص)

قال الفراء فى تفسير (الحين) الذى ذكرته الآية أنه:

بعد الموت وقبله أى لتظهر لكم حقيقة ما أقول بعد حين أى فى المستأنف كما فى قوله تعالى:

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الأنعام)

وشاء الله أن يجعل لكل نبأ زمنًا خاصًّا يتحقق فيه، فإذا تجلى الحدث ماثلا للعيان أشرقت المعانى التى حملتها الحروف والألفاظ فى القرآن.

وقال ابن جرير الطبرى:

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ ﴾ يقول: لكل خبر مستقر، يعنى قرارًا يستقر عنده ونهاية ينتهى إليها فيتبين حقه وصدقه. وسوف تعلمون. يقول: وسوف تعلمون أيها المكذبون بصحة ما أخبر به.

وقال ابن كثير:

قال ابن عباس: أى لكل نبأ حقيقة، أن لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما قال تعالى:

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾ (ص)

وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين: أنباء الأرض والسماء فى القرآن والسنة تتجلى فى عصر الاكتشافات..

وإن خير القرآن والسنة وما فيهما من أوصاف لما فى الأرض والسماء هو نبأ إلهى عما فى الأرض والسماء ممن هو أعلم بما خلق فيهما من أسرار.

ولقد زخر القرآن والسنة بأنباء الكون وأسراره، وتفجرت فى عصرنا علوم الإنسان باكتشافاته المتتالية لآفاق الأرض والسماء، فحان الحين لرؤية حقائق العلم الذى نزل به الوحى فى القرآن والسنة[1].

ولقد قبلت البشرية اليوم العلم طريقاً إلى معرفة الحق، بعد أن كبلت طويلا بأغلال التقليد الأعمى، فشيدت للعلم البناء، وفرغت لخدمته العلماء، ورصدت له الأموال، وما إن وقفت العلوم التجريبية على قدميها حتى بدأت فى تأدية دورها الذى حدد الله لها فى جعلها طريقا إلى الإيمان به، وشاهدا على صدق رسوله - ﷺ. كما فى قوله سبحانه:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(فصلت: ٥٣)

لقد نزل القرآن فى عصر انتشار الجهل وشيوع الخرافة والكهانة والسحر والتنجيم فى العالم كله، وكان للعرب النصيب الأوفى من هذه الجاهلية والأمية كما بين القرآن ذلك بقوله:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾

(الجمعة)

لقد نزل القرآن على قوم استماتوا فى الانصراف عنه دفاعًا عن أصنامهم التى كانوا عليها عاكفين، وتعلقاً بما آمنوا به من خرافات السحر والكهانة والتنجيم، وأوهام الأزلام والتشاؤم من بعض الشهور، ومن مرور بعض أنواع الحيوان، وجادلوا عن ضلالتهم فى طلب الحماية من ملوك الجان فى الشعاب والوديان، وهذا مثل من الضلال الفكرى الذى كان عليه العرب عند نزول القرآن.

وأما من جهة المستوى العلمى الذى كانوا عليه فيشرحه الرسول - ﷺ - بقوله «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب». وبعد أن حثهم رسول الله ﷺ على القراءة والكتابة والعلم

---

(١) للمؤلف كتب فى هذا المجال منشورة بدار الفكر العربى، دار المعارف، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

والحساب لم يجدوا أمامـهم مـن أدوات الكتابـة إلا الجلـود والأحجـار الرقيقـة وسعف النخـل وعليها كانوا يكتبون.

فى ذلك العصر وعلى تلك الأمة نزل الوحى، وفيه علم الله يصف أسرار الخلق فى شتى الآفاق. ويجلى الخلق فى النفس البشرية، يقرر البداية والنهاية، ويصف أسرار الحاضر، ويكشف غيب المستقبل الذى ستكون عليه سائر المخلوقات.

وعندما دخل الإنسان فى عصر الاكتشافات العلميـة وامتلك أدق الأجـهزة للبحث العلمى، وتمكن من حشد الجيوش من الباحثين في شتى الآفاق، وجمعـهم فى ميادينه على اختلاف الأجناس يبحثون عن الأسرار المحجوبة فى آفاق الأرض والسماء وفى مجالات النفس البشرية، يجمعون المقدمات ويرصدون النتائج فـى رحلـة طويلـة عـبر القرون فـإذا مـا تكاملت الصورة، وتجلت الحقيقة وقعت المفاجأة الكبرى بتجلى أنوار الوحى الإلهى الذى نـزل علـى محمـد ﷺ قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام بذكر تلك الحقيقة فى آيـة مـن القرآن أو بعض آيـة، أو فـى حديث لرسول الله ﷺ أو بعض حديث بدقة علمية معجـزة، وعبارات مشرقة، وبـهذا أنبأنـا القرآن كما فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت)

فهيا نتدبر بعض معانى هذا النص القرانى:

لقد ورد الأفق فى اللغة بمعنى ما ظـهر مـن نواحـى الفلـك وأطـراف الأرض، وآفـاق السـماء نواحيها، وآيات الله فى آفاق الأرض والسماء تحمل معانى ثلاثة:

الأول: المخلوقات التى خلقها الله فى شتى آفاق الأرض والسماء مثل قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الشورى)

الثانى: آيات القرآن التى تخبر وتصف أنـواع المخلوقـات، وهـى آيـات كثيرة منـها قولـه تعالى:

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾ (الجن)

الثالث: البينات والمعجزات التى يظهرها الله تصديقا لرسوله ﷺ فى شتى آفاق الأرض والسماء من حقائق الخلق حينًا بعد حين.

قال الشوكانى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ ﴾: سنريهم صدق دلالات صدق القرآن (وعلامة كونه من عند الله) فى الآفاق وفى أنفسهم.. والمعنى: سنريهم آياتنا فى النواحى وفى أنفسهم.

وقال ابن كثير: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾: أى سنظهر لهم دلالاتنا، وحججنا على كون القرآن حقًا منزلا من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية فى الآفاق.

وقال الزمخشرى: ومعناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذى هو على كل شىء شهيد، أى مطلع ومهيمن يستوى عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عنده.

بهذا قال كثير من المفسرين عند تفسير قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

وقال أبو العباس ابن تيمية:

وأما الطريق العيانى فهو أن يرى العباد من الآيات فى الآفاق والأنفس ما يبين لهم أن الوحى الذى بَلَّغَهُ الرسول عن الله حق كما قال تعالى:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣)

أى: أو لم يَكفِ بشهادته المخبرة بما فى علمه، وهو الوحى الذى أخبر به الرسول ﷺ فإن الله على كل شىء شهيد وعليم به.

ولقد قرر عطاء وابن زيد أن معنى الآفاق المذكورة فى الآية هو ما نقله عنهما القرطبى فى تفسيره. يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها.

وروى هذا عنهما عدد من أئمة التفسير.

وفى الجلالين:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ ﴾ أقطار السموات والأرض من النَّيِّرات والنبات والأشجار. (وفى أنفسهم): من لطيف الصنعة وبديع الحكمة. فهذه آيات الله فى كتابه تتحدث عن آياته فى مخلوقاته، وتتجلى بمعجزة علمية بينة تسطع فى عصر الكشوف العلمية فى آفاق الكون.

obeikandi.com

الانبهار بالقرآن حتمى والمعجزة واقعة:

إننا على وعد من الله عز وجل بأن يرينا آياته، فيحقق لنا — بهذه الرؤية — العلم الدقيق بمعانى هذه الآيات، قال تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (النمل)

ومخلوقات الله من آياته سبحانه، ومنها ما جاء فى القرآن وصفًا ونبأ عن آياته عز وجل فى السموات والأرض. وروى الطبرى عن ابن نجيح وابن جريج عن مجاهد أنه قال فى تفسير هذه الآية:

﴿ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ قال: فى أنفسكم والسماء والأرض والرزق.

وقال ابن كثير فى تفسير الآية: أى الحمد لله الذى لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه والإنذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾، كما قال تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣)

ومما سبق يتبين لنا أن البشرية على موعد من الله متجدد ومستمر يكشف آياته فى الكون وفى كتابه أمام الأبصار؛ لتقوم الحجة وتظهر المعجزة القرآنية.

إن الوحى فى القرآن والسنة يفيض بالخبر عن أوصاف المخلوقات، وهذه الأبحاث العلمية التجريبية تتجه بدراستها وبحثها إلى نفس الميدان الذى وصفه القرآن وتحدث عنه الرسول ﷺ فاللقاء مع الانبهار بالقرآن حتمى والمعجزة لا شك واقعة.

لقد جاءت العلوم البشرية التجريبية شاهدة بصدق ما أخبر به القرآن من تحريف سائر الأديان، وجاءت شاهدة ومجلية لدقائق المعانى فى الآيات والأحاديث النبوية ذات التعلق بالأمور الكونية. وهذه مناكب دعاة الإسلام على اختلاف تخصصاتهم العلمية تتزاحم لبيان هذه المعجزات العلمية، وبدأ عدد من كبار علماء الكون من غير المسلمين يتجهون إلى نفس الميدان، فمنهم من أسلم، ومنهم من شهد بحقيقة المعجزة العلمية، حقا لقد بدأ عصر تجلى معانى كثيرة من آيات القرآن الكريم الكونية ومن الأحاديث النبوية - كما وعد بذلك الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ٦٧)